بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السابع

١٤٤٠/٠٤/١٠

وقال تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ٥٠﴾ [سبأ]، فهذا نصٌّ صريحٌ في أنّ هُدىٰ الرسول ﷺ إنّما حصل بالوحي، فيا عجبًا كيف يحصل الهُدىٰ لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة!؟ ولكن ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [الكهف]، فأيّ ضلالٍ أعظم من ضلال من يزعم أنّ الهداية لا تحصُل بالوحي، ثم يحيل فيها علىٰ عقل فلان ورأي فلتان، وقول زيدٍ وعمرو، فلقد عظُمت نعمة الله علىٰ عبدٍ عافاه من هذه البلية العظمىٰ والمصيبة الكبرىٰ، والحمد لله ربِّ العالمين.

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. فهذا الدليل السادس من الأدلة التي ساقها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في هذا الفصل المتعلق بالهجرة إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام، اتباعًا له واهتداءً بهديه ولزومًا لنهجه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية الكريمة، قول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ (لرسوله ﷺ: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ٥٠﴾) الشاهد من الآية الكريمة قوله جل وعلا مخاطبًا نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ أي: أنّ الهداية الحاصلة للرسول عليه الصلاة والسلام إنما هي بالوحي، نظير هذه الآية ما جاء في آخر السورة قول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورىٰ:٥٢]، فالهداية بالوحي لا بغيره، الهداية التي حصلت للرسول وتحصل لمن شاء الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من أمته عليه الصلاة والسلام إنما هي بالوحي، وحي الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ المنزَّل من الله جل وعلا، فلا هداية إلا بالوحي، لا هداية إلا بوحي الله جل وعلا.

قال ابن القيم: (فهذا نص صريح في أن هُدىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام إنما حصل بالوحي)، واستحضِر هنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام أكمل الخلق، وأرجحهم عقلًا، وأعظمهم فطنة وفهمًا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، يقول ابن القيم: (فيا عجبًا كيف يحصل الهُدىٰ لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة!؟) كيف تحصل هداية من هذه الأشياء والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يأمر رسوله عليه الصلاة والسلام في هذه الآية يقول: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ ففي الآية أنّ

الهداية لا تكون ولا تُنال إلا بالوحي، (فأيّ ضلال أعظم من ضلال من يزعم أنّ الهداية لا تحصل بالوحي)، هذه من أعظم المصائب والجنايات علىٰ الناس، أن يدّعي مُدَّعٍ أنّ الهداية لا تحصل بالوحي وإنما تحصل بالآراء أو تحصل بالعقول، وهذه الكلمة حتىٰ وإن لم يقلها بعضهم صراحة لكنه يقولها واقعًا في عمله، مُعرض عن الوحي، حتىٰ وإن لم ينطق بها صراحة - أنّ الهداية ليست بالوحي - لكنه معرض عن الوحي، لا يطلب الهداية من جهته، وإنما هو متجه إلىٰ فكرِهِ أو رأيه أو عقله أو غير ذلك من المصادر المتخذة المزعومة.

قال: (ثم يحيل فيها علىٰ عقل فلان ورأي فلتان)، وعندما يُحال الناس في الدِّين إلىٰ العقول أي شيء يحصل للناس؟ قال بعض السلف قديمًا: لو كانت الأهواء هوًىٰ واحدًا لقيل أنه الحق، ولكنها أهواء! ويمكن أن يُقال علىٰ النسق نفسه: لو كانت العقول عقلًا واحدًا لقيل: إنه الحق، لكن عقول! ولهذا في رد مثل ذلك قال بعض السلف: عقل من!؟ إذا كانت الإحالة علىٰ العقول فعقلُ مَن الذي يُحال إليه!؟ وهل العقول مُتّحدة علىٰ رأيٍ واحد!؟ حتىٰ صاحب العقل الواحد تجده مرةً يرىٰ رأيا وفي غدٍ يرىٰ ضده وخلافه، يتغير عقله ورأيه، فإذا أحيل الناس إلىٰ العقول ضاعت أديانهم وفسدت عقائدهم وحصل انحرافهم، كيف يُحال إلىٰ العقول ويُترك منبع الهداية ومَعينُها الوحيد وهو الوحي المُنزّل من الله ﷻ.

قال: (فلقد عظُمت نعمة الله علىٰ عبدٍ عافاه الله من هذه البلية)، لا شك أنّ هذه والله من أعظم النعم، أن يُعافىٰ المرء من تلك المسالك، وأن يجد نفسه مقبلة علىٰ وحي الله، تهتدي بهداه وتنهل من معينه وتطلب الهداية منه، لا تطلبها من أي مصدرٍ آخر.

وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف].

فأمر سبحانه باتباع ما أنزل علىٰ رسوله، ونهىٰ عن اتباع غيره، فما هو إلا اتباع المُنزل أو اتباع أولياء من دونه، فإنّه لم يجعل بينهما واسطة، فكل من لم يتّبع الوحي فإنما اتبع الباطل، واتبع أولياء من دون الله، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به.

هذا الدليل السابع قول الله ﷻ: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف].

الشاهد قوله جل وعلا: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ أمرٌ باتباع المُنزل، ونهيٌ عن اتباع غير المنزل، ولهذا الدِّين أو الأديان التي عند الناس هي لا تخرُج عن قسمين واضحين في الآية: إما دينٌ منزَّل، أو دينٌ نابت في الأرض، ما يخرج عن ذلك، والحق والهدىٰ إنما هو في الدِّين المُنزّل من رب

العالمين ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ولهذا تجد في رد الأنبياء باطل أقوامهم، يقولون في رد باطل أقوامهم: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ [يوسف:٤٠]، يعني هذه الأشياء التي أنتم عليها ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ وهذا فيه أنّ الحق إنما هو في المنزل من رب العالمين؛ لأن الدين لله ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى:٢١] الدين لله ﷻ، يشرع ما يشاء ويحكم ما يريد ﷻ، فالأديان التي عند الناس لا تخرج عن قسمين: إما دين منزَّل، أو دين نابت، نبت في الأرض، نشأ في الأرض، اخترعته عقول الناس وآراؤهم وتجاربهم وما إلىٰ ذلك، وربُّ العالمين جل وعلا لا يرضىٰ لعباده دينًا سوىٰ المنزل منه جل وعلا، لا يرضىٰ غير ذلك ولا يقبل غير ذلك ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣]، فالله لا يرضىٰ إلا المنزل منه جل وعلا.

ما أمارة المنزَّل؟ أمارته عند الاستدلال لهُ يُقال: قال الله، قال رسوله ﷺ. هذه أمارته، أمارة المنزَّل أن يقول القائل في استدلاله: قال الله قال رسوله ﷺ، هذا هو المنزل، «أوتيت القرآن ومثله معه» [صحيح الجامع – بلفظ: الكتاب بدلا من القرآن]، هذا الوحي المنزل الذي أُمِرَ العباد باتِّباعه ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾.

قال ابن القيم: (فما هو إلا اتباع المنزل أو اتباع أولياء من دونه، فإنه لم يجعل بينهما واسطة)، ما هناك خيار ثالث أو طريق ثالث أو مسلك ثالث، إما المنزل أو النابت، خيار ثالث لا يوجد، فمن لم يتبع المنزل من الله فهو علىٰ باطل أيًّا كان مذهبه، أيًّا كان مسلكه، أيًّا كانت طريقته علىٰ باطل، لأنّ الحق انحصر في المُنزل من رب العالمين ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ يقول ابن القيم أخذًا من الآية: (فكل من لم يتَّبع الوحي فإنما اتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله)، مثلما قال الله في الآية الأخرىٰ ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص:٥٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾ [الفرقان].

فكل من اتخذ خليلًا غير الرسول ﷺ، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول، فإنه قائلٌ هذه المقالة لا محالة، ولهذا فإنه سبحانه لم يُعيّن هذا الخليل، وكَنَّىٰ عنه باسم فلان، إذ لكل مُتبعٍ أولياء من دون الله فلان وفلان، فهذا حال هذين الخليلين المُتخالّين علىٰ خلاف طاعة الرسول، ومآل تلك الخلة إلىٰ العداوة واللعنة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف].

هذا الدليل الثامن من الأدلة التي ساقها، وفي هذا الدليل الندامة الكبرىٰ والحسرة العظمىٰ التي تكون يوم القيامة لمن لم يتبع المنزل، ولم يتبع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فكل من ترك اتباع الرسول سيعض أصابع الندم والحسرة يوم القيامة ولا ينفعه ذلك! ندامةٌ لا تنفع وحسرةٌ لا تُجدي ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ يقول هذه نَدِمًا ومتحسرًا علىٰ ما كان من تفريطٍ في اتباع الرسول واتباع المنزَّل علىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ وهذا أيضًا تحسُّر من الأخلَّاء المُتَّخذين الذين كانت خلتهم مهلكة للإنسان وضياع، ولهذا خليل السُّوء وصديق السوء ورفيق السوء هذا مصيبة علىٰ صاحبه وبلوىٰ! وسيندم المرء يوم القيامة ندامة شديدة علىٰ مرافقة هؤلاء الخلطاء، خلطاء السوء ورفقاء السوء، وكان قديمًا خليط السوء رفيقٌ، ترىٰ شخصه أمامك بذاته، يُماشيك ويحدثك ويستجرّك لما عنده، بينما استجد في زماننا هذا أمر لم يكن موجودا في تاريخ البشرية فيما سبق من تاريخ البشرية، وهو مصاحبة الأجهزة الحديثة، هذه الصحبة التي لم تكن موجودة في زمان سابق، وكم سيندم أقوام يوم القيامة علىٰ صحبتهم لهذه الأجهزة، ورفقتهم لهذه الأجهزة، أعني من لم يوفق لاستعمال هذه الأجهزة في الخير والفائدة، وأخذ يدخل من خلالها علىٰ مواقع الشر والفساد والسوء والقبح والشهوات المحرمة والفواحش... إلىٰ غير ذلك، وفيها أودية ومتاهات مهلكة جدًّا، هلك بها أقوامٌ وأقوام، من الناس من ألحد، منهم من انحرف في عقيدته، في سلوكه، في خُلقه، في تعامله بسبب هذه الرفقة؛ الصحبة لهذا الجهاز، وادمان النظر والسماع إلىٰ ما فيه من شر وفساد.

أما من وفقه الله ﷻ لاستعمالها في الخير فهذه من نعمة الله عليه، من نعمة الله ﷻ عليه أن يسلِّم له بصره وسمعه وفكره من أن يعلق به شيء من اللوث والسوء والشر الذي في هذه الأجهزة، التي تشتمل علىٰ كثير من الشر.

أسألُ الله ﷻ في هذه الساعة المباركة بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا وبأنه الله لا إله إلا هو أن يعافينا وإياكم وذرياتنا مما في هذه الأجهزة من شر وفساد إنه تبارك وتعالىٰ سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أرجع مرة أخرىٰ لما في القلوب من ألم من هذه الأجهزة، كم سيقول هذه الكلمة ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ كم تفوّت هذه الأجهزة من صلوات من طاعات من فرائض من واجبات من حقوق عظيمة... كم أهلكت أناس وأضلتهم عن ذكر الله ﷻ، وشغلتهم في متع محرمة ولهو باطل وتعلقات زائفة!؟ أضرت بالناس مضرة عظيمة ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى

عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾ من وراء ذلك كله الشيطان أعاذنا الله وذرياتنا منه، فإنه يدفع الناس دفعًا، ووجد في هذه الأجهزة بُغية عظيمة له، وكم صدّ من خلالها خَلقٌ وخلق عن دين الله وصرفهم عن دينه ﷻ!؟

قال: (فكل من اتخذ خليلا غير الرسول يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول) ﷺ (فإنه قائل هذه المقالة لا محاله)، سيقول يوم القيامة ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ متندمًا، (ولهذا فإنه سبحانه لم يعيّن هذا الخليل)، انظر هذه اللطيفة من ابن القيم: (لم يعيّن هذا الخليل)، ما سمىٰ شخصًا، قال: ﴿فُلَانًا﴾ فلان هذه مثل ما يقول ابن القيم: (كَنَّىٰ عنه باسم فلان، إذ لكل متَّبع أولياء من دون الله فلان وفلان) يتَّبعهم، فلمَّا كان المتَّبعون أنواع كثيرة، ومسالكُهم متنوعة، كَنَّىٰ عنهم بفلان، ويدخل في فلان ماذا؟ أكملوا: الأجهزة، خاصةً أبواب الشر التي فيها هذه تدخل تحت فلان وفلتان، وما فيها من الشر والضياع نسأل الله العافية السلامة، نسأل الله العافية والسلامة..

وقد ذكر الله تعالىٰ حال هؤلاء الأتباع وحال من اتَّبعوهم في غير موضع من كتابه، كقول الله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب].

تمنَّىٰ القوم طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول ﷺ، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلىٰ قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية، وبالله التوفيق.

نعم، يعني هذه (حال هؤلاء الأتباع وحال من اتَّبعوهم)، يوم القيامة يتمنىٰ القوم لو أطاعوا الله وأطاعوا الرسول (حين لا ينفعهم ذلك)، هذا التمني لا يجدي في ذلك الوقت ولا ينفع، (واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، آلت تلك الطاعة والموالاة) إلىٰ ما ذكره الله بقوله عنهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ في الدنيا اتِّباع لهم، وفي الآخرة تمني ألّو لم يتبعوهم، ودعاء لله ﷻ أن يعذِّبهم عذابًا مضاعفًا (﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية)، والسعيد من اتَّعظ، السعيد من أخذ العبرة وأخذ منها يقظة لقلبه وانتباها قبل أن يكون – والعياذ بالله – من هؤلاء النادمين يوم القيامة.

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف].

فليتدبر العاقل هذه الآيات وما اشتملت عليه من العبر.

نعم، هذا الدليل التاسع والأخير من الأدلة التي ساقها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذا الفصل، وهي آيات عظيمة جدًّا فيها عبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين، وسيوضّح الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ بعضًا من معانيها وهداياتها.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ ذكر الصِّنفين المبطِلَين:

أحدها: منشأ الباطل والفرية وواضعها وداع الناس إليها.

والثاني: المكذِّب بالحق.

فالأول كفره بالافتراء وإنشاء الباطل.

والثاني كفره بجحود الحق.

وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل، فإن انضاف إلىٰ ذلك دعوته إلىٰ باطله، وصدّ الناس عن الحق، استحق تضعيف العذاب لتضاعف كُفره وشره، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل]، فلمَّا كفروا وصدوا عباده عن سبيله عذبهم عذابين، عذابًا بكفرهم، وعذابا بصدِّهم عن سبيله، وحيث يذكر الكفر المجرَّد لا يعدَّد العذاب كقوله: ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة].

هذا الموطن الأول من فوائد هذه الآية في قوله: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ صنفين من المبطلة؛ أهل الباطل، والأول ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الذي يفتري الكذب علىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهو من يُنشئ الباطل والفرية ويضعها بين الناس، والقسم الآخر من يكذِّب ما جاء عن الله، المكذِّب بالحق إذ جاءه، فالمُبطلة علىٰ صنفين: قسم يفتري علىٰ الله الكذب، ينشئ الباطل وينسِبه إلىٰ الله جل وعلا، وقسم يُكذّب بالحق الذي جاء من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، (الأوَّل كفره بالافتراء وإنشاء الباطل، والثاني كُفره بجحود الحق) والتكذيب به.

قال: (وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل)، لكل صاحب باطل لأنه سينتصر لباطله، وكيف تكون الطريقة في الانتصار لباطله والدِّفاع عنه والحميّة عنه؟ له هذان المسلكان: إما أن يكذب علىٰ الله، أو أن يُكذّب

بالمنزّل، إن احتُجّ عليه بالمنزّل كذَّب، وهو إن أراد أن يحتج كذَبَ وافترىٰ، فهو في انتصاره لبطاله يسير في هذين المسلكين، التكذيب بالحق، والكذب علىٰ الحق ﷻ، فإذا (انضاف إلىٰ ذلك دعوته إلىٰ باطله) فهذا الأمر أشد، والعقوبة أعظم؛ لأن عليه حينئذٍ عقوبتين، عقوبة الكذب والتكذيب، وعقوبة الدعوة إلىٰ ذلك، فيضاعف له العذاب ضعفين.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني ينالُهم ما كتب لهم في الدنيا من الحياة والرِّزق وغير ذلك.

هذا الموطن الثاني المستفاد من هذا السِّياق، قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني فيما يتعلَّق بأمر الدنيا ومُتعها وملذَّاتها إلىٰ غير ذلك، ينالهم الشيء الذي كُتب ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الشَّيء الذي كُتب وقُدّر من رِزْق أو صحة أو عافية... إلىٰ آخره، ينالهم نصيبهم الذي كُتب وقُدِّر. هذا في الدنيا ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني (في الدنيا)، من صحة، عافية، رزق، بيت، مسكن... إلىٰ غير ذلك ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الشيء الذي كُتب وقدّر.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني ينالهم ما كُتب لهم في الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أين من كُنتم توالون فيه وتعادون فيه، وترجونه وتخافونه من دون الله!؟ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ زالوا وفارقوا، وبطلت تلك الدعوة.

هذا الموطن الثالث في هذا السياق، إذا جاءت الملائكة لقبض أرواح هؤلاء، الذين كذّبوا بالحق، وكذَبوا علىٰ الحق ﷻ، إذا جاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم ﴿قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ قالت لهم الملائكة: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ كنتم تعتقدون فيهم نصرًا، عونًا، رزقًا... إلىٰ غير ذلك، أين هم؟ ها هي الملائكة جاءت لقبض أرواحكم، أين هؤلاء الذين تدعون من دون الله مِن نُصرتكم وإنقاذكم وتخليصكم!؟ ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ ترجونهم، تسألونهم، أين هم؟ (﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ زالوا)، فارقونا، (بطلت تلك الدعوة! ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾) فهذه حسرة تلحقهم عند الموت، حسرة تلحق هؤلاء عند الموت، عند قبض أرواحهم، تقول لهم الملائكة عند مجيء رسل الله؛ أي: ملائكته لقبض أرواح هؤلاء ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ أين هم؟ يخلِّصونكم، ينقذونكم!؟ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: (زالوا)، ذهبوا، ما أصبح لهم أي وجود، ثم يعترفون بأنهم كانوا في كفر، لكن كل هذا ماذا؟ لا ينفع ولا يجدي.

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ [الأعراف] أي: ادخلوا في جملة هذه الأمم.

نعم، يعني ثم هم يعترفون أنهم كانوا كافرين، في حال صحَّتهم وتمتعهم بالدنيا كانوا متعلِّقين بهؤلاء، لكن لمّا آلوا إلىٰ هذه المآل وجاءت الرسل، رسل الله وملائكته لقبض الأرواح، شهدوا بـ ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾ لكن هذه الشهادة لا تنفع شيئًا ولا تُجدي.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ أي: كلُّ أمة متأخرة ضلت بأسلافها ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ أي: ضاعف عليهم العذاب بما أضلونا وصدونا عن طاعة رسلك، قال الله تعالىٰ: ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ أي: من الأتباع والمتبوعين، بحسب ضلاله وكفره ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ أي: لا تعلم كل طائفة بما في أختها من العذاب المضاعف.

وهذا من المواطن التي فيها عبرة عظيمة جدًّا للمعتبرين؛ لأن هؤلاء والعلائق التي بينهم والصلات، مهما قويت تؤول إلىٰ التلاعن في النار ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ ففي النار يكون أهل النار – والعياذ بالله – علىٰ هذه الحال، في تلاعن، كل أمة تلعن أختها، بينما أهل الإيمان ليس بينهم التلاعن، وإنما الذي بينهم التراحم، أمة متراحمة أمة الإيمان، يرحم بعضهم بعضًا، يدعو بعضهم لبعض، يستغفر بعضهم لبعض.. وهؤلاء هذا مآلهم، مهما كانت الرابطة يؤول أمرهم إلىٰ هذا المآل ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾.

﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ أي: فإنكم جئتم بعدنا فأُرسِلَت فيكم الرسل، وبينوا لكم الحق، وحذّروكم من ضلالنا، ونهوكم عن اتباعنا وتقليدنا، فأبيتم إلا اتباعنا وتقليدنا، وترك الحق الذي أتتكم به الرسل، فأي فضلٍ كان لكم علينا؟ وقد ضللتم كما ضللنا، وتركتم الحق كما تركناه، فضللتم أنتم بنا كما ضللنا نحن بقومٍ آخرين، فأيُّ فضل لكم علينا!؟ ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩﴾ [الأعراف] فلله ما أشفاها من موعظة، وما أبلغها من نصيحة لو صادفت من القلوب حياة! فإنّ هذه الآيات وأمثالَها مما تذكّر قلوب السائرين إلىٰ الله، وأما أهل البطالة الثَّكلة فليس عندهم من ذلك خبر.

نعم، هنا، يعني في هذه الآيات وفي غيرها، يذكر الله ﷻ في مواطن من القرآن أقوال أهل النار، ماذا يقول بعضهم لبعض، وهذا الحوار ذكره الله لعباده في القرآن حتىٰ يعتبروا ويتعظوا، ويأخذوا من ذلك عبرة فيكون لهم نجاة من هذا المصير، وسلامة من هذا المآل – أعاذنا الله أجمعين وذرياتنا من النار –.

فذكر ﷻ أولًا: أنّ الأتباع يقولون: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف:٣٨]، ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ

أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ ضاعف لهم العذاب؛ لأنهم هم الذين أضلونا وحرفونا، هذا قول الأتباع، فيجيبهم المتبوعون بماذا؟ قال الله: ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ ما في مزية، نحن مثلكم كان قبلنا أناس وتبعناهم في الضلال، جاءت رسل الله ما قبِلنا، وأعرضنا عن الحق الذي جاءت به رسل الله، وأنتم مثلنا! ما في فرق بيننا وبينكم، ولا في مزية، نحن مثلكم، علىٰ قول أهل الباطل: نحن في الهواء سواء! أي الباطل، ما في مزية بيننا وبينكم، في خندق واحد في مسلك واحد في مهلكة واحدة! نحن كان لنا أقوام قبلنا نهجنا نهجهم وسلكنا طريقهم، جاءتنا الرسل بالحق والهدىٰ من ربنا فما قبلنا، وأنتم مثلنا ما لكم علينا من فضل ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩﴾ الدرب واحد، ما ثمة فرق بيننا وبينكم.

(فلله ما أشفاها من موعظة، وما أبلغها من نصيحة لو صادفت) قلوبا حية، وهذا تنبيه من ابن القيم أنّ هذه الأقوال – أقوال أهل النار – وهي ذكرت في القرآن في مواطن يذكر أقوالهم، حتىٰ يعتبر الإنسان ويتعظ، ويسأل الله العافية والسلامة من هذا المصير وهذا المآل..

فصل

فهذا حكم الأتباع والمتبوعين المشتركين في الضلالة.

الذي تقدم هو في حال (الأتباع والمتبوعين المشتركين في الضلالة)، لأن الأتباع والمتبوعين علىٰ أقسام، هذا قسم الآن، القسم الثاني:

وأما الأتباع المخالفون لمتبوعيهم، العادلون عن طريقتهم، الذين يزعمون أنهم تبعٌ لهم وليسوا متبعين لطريقتهم، فهم المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة]، فهؤلاء المتبوعون كانوا علىٰ الهدىٰ، وأتباعهم ادعوا أنهم علىٰ طريقتهم ومنهاجهم، وهم مخالفون لهم، سالكون غير طريقهم، يزعمون أنهم يحبونهم، وأن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم لهم، فيتبرؤون منهم يوم القيامة، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله وظنوا أن هذا الاتخاذ ينفعهم.

هذا قسم الآن، هذا قسمٌ أخر (الأتباع المخالفون لمتبوعيهم) يدّعي أنه تابع وأنه من أتباعه، لكنه مخالف له، مثلًا: النصارىٰ يدّعون أنهم أتباع عيسىٰ، لكن أين هم والشأن الذي كان عليه عيسىٰ عليه السلام!؟ وعيسىٰ يتبرأ منهم ومن اتباعهم المزعوم هذا له – أنهم أتباع له – لأنهم يزعمون أنهم أتباع له وهم في الحقيقة يسلكون

غير مسلكه، وهذا كثير، انتبه لقول النبي ﷺ: «**لتتبعن سَنن من كان قبلكم**» [متفق عليه]، إذا كان هناك من يدعي أنه يتبع عيسىٰ وهو في الحقيقة مخالف له، أيضًا في الأمة سيوجد من يكون عنده الاتباع بالادعاء فقط، ثم يسلك مسالك أخرىٰ: عبادة القبور، عبادة الأضرحة... وغير ذلك، وهو يدّعي أنه متبع للرسول، والرسول عليه الصلاة والسلام إنما بعث بإبطال ذلك: «**لَعْنَةُ اللهِ علَىٰ اليَهُودِ والنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا. [صحيح البخاري ومسلم]، عليه الصلاة والسلام، مِن أن يفعل أحدٌ من أمّته مثل فعل هؤلاء، تحذيرًا مما صنع هؤلاء، قال ذلك في لحظاته الأخيرة من هذه الحياة صلوات الله وسلامه عليه.

فهذا قسم آخر (الأتباع المخالفون لمتبوعيهم العادلون عن طريقتهم)، العادلون: أي المائلون، (الذين يزعمون أنهم تبع لهم وليسوا متبعين لطريقتهم، فهؤلاء المتبوعون كانوا علىٰ) هدىٰ، (وأتباعهم ادعوا أنهم علىٰ طريقتهم ومنهاجهم؛ وهم مخالفون لهم سالكون غير) طريقتهم، (ويزعمون أنهم يحبونهم، وأنّ محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم لهم، فيتبرؤون منهم) أي: المتبوعون، يتبرؤون من أتباعهم (يوم القيامة، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله).

وهذه حال كل من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء، يوالي لهم ويعادي لهم، ويرضىٰ لهم ويغضب لهم، فإنّ أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه، إذ لم يُجرّد موالاته ومعاداته ومحبته وبغضه وانتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأبطل الله ﷻ ذلك العمل كله وقطع تلك الأسباب، وهي الوُصَلُ والمولاة التي كانت بينهم في الدنيا لغيره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ فينقطع يوم القيامة كل سبب ووصلة ووسيلة ومودة وموالاة كانت لغير الله، ولا يبقىٰ إلا السبب الواصل بين العبد وبين ربه، وهو حظه من الهجرة إليه وإلىٰ رسوله، وتجريد عبادته وحده، ولوازمها من الحب، والبغض، والعطاء، والمنع، والمولاة، والمعاداة، والتقريب، والإبعاد، وتجريد متابعة رسوله وترك أقوال غيره لقوله، وترك كل ما خالف ما جاء به والإعراض عنه، وعدم الاعتداد به، وتجريد متابعته تجريدًا محضًا بريئًا من شوائب الالتفات إلىٰ غيره، فضلًا عن الشركة بينه وبين غيره، فضلًا عن تقديم قول غيره عليه! فهذا السبب هو الذي لا ينقطع بصاحبه، وهذه هي النسبة التي بين العبد وبين ربه، وهي نسبة العبودية المحضة، وهي آخيته التي يجول ما يجول، ثم إليها مرجعه.

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوىٰ ... ما الحب إلا للحبيب الأوّلِ
كم منزل في الأرض يألفه الفتىٰ ... وحنينه أبدًا لأوّل منزل

(الآخيّة) عود أو عصا تغرز في الأرض ويُشدّ بها الحبل المربوط بالدّابة، فإذا أخذت الدابة ترعىٰ من

الأرض فإن رعيها يكون في ماذا؟ في حدود هذه الآخية، تجول ما تجول لكنها ما تخرج عن هذا الحد، فآخيته التي عليها يجول، يعني: هو يدور لكنه حول السنة، مثلما قال بعض السلف: ندور مع السنة حيث دارت، هذا مسلكهم، يدور مع السنة يعني: إثباتًا ونفيًا، نُثبت ما ثبت وننفي ما نفت، ونعمل بما أُمرنا به في السنة، وننتهي عما نُهينا عنه فيها.

وهذه النسبة هي التي تنفع العبد، فلا ينفعُه غيرها في الدور الثلاثة، أعني دار الدُّنيا، ودار البرزخ، ودار القرار.

النسبة تقدم الكلام عنها أي: الهجرة إلىٰ الله وإلىٰ رسوله، إذ الهجرة لله بالتوحيد وللرسول بالاتباع، هذه النسبة والوُصلة هي التي تنفع في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة، (في الدور الثلاثة).

فلا قِوام له ولا عيش ولا نعيم ولا فلاح إلا بهذه النسبة، وهي السَّبب الواصل بين العبد وبين الله، ولقد أحسن القائل حيث قال:

إذا تقطَّع حبل الوصل بينهم ... فللمحبِّين حبل غير منقطعِ

وإن تصدَّع شمل الوصل بينهم ... فللمحبِّين شمل غير منصدعِ

نعم، والحق الموصل إلىٰ الله ﷻ يسمَّىٰ حبل ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣].

والمقصود أنّ الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعُلَقَ والوُصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها.

كل وُصلة وكل علاقة مهما قويت تنقطع ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ الوصل والعلاقات كلها تنقطع إلا الوصلة والسبب التي في الله ولله، فما كان لله دام واتَّصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل.

ولا يبقىٰ إلا السبب والوُصلة التي بين العبد وبين ربِّه فقط، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقُّق إلا بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامُه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت علىٰ ألسنتهم، وما عُرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان].

نعم، أي أنّ الأعمال كلها تذهب سدىٰ، وتضيع هباء، إلا إذا كانت علىٰ هذا الأساس: خالصةً لله، موافقة لهدي رسوله عليه لصلاة والسلام، ولهذا جاء في الحديث القُدْسي: «**قال الله تبارك وتعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء**

عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» [صحيح مسلم]، هذا يتعلق بالإخلاص، وفيما يتعلق بالمتابعة قال عليه الصلاة والسلام: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد» [صحيح مسلم]، أي: مردود علىٰ صاحبه غير مقبول منه، فالأعمال لا تكون نافعة ولا مشكورة مقبولة يوم القيامة إلا بهذا القيد ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء].

فهذه الأعمال التي كانت في الدنيا علىٰ غير سنة رسله وطريقتهم، ولغير وجهه، يجعلها الله هباءً منثورًا، لا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلًا، وهذا من أعظم الحسرات علىٰ العبد يوم القيامة، أن يرىٰ سعيه كله ضائعًا لم ينتفع منه بشيء، وهو أحوج ما كان العامل إلىٰ عمله، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم.

نعم، الهباء يعني المذكور في الآية، قيل في معناه: أنه رذاذ التراب اليسير الذي لا تكاد تراه إلا إذا اخترقت الشمس جزءًا من النافذة، فترىٰ مع شعاع الشمس رذاذ يسير جدًّا لا يُرىٰ إلا في مثل هذه الحالة، سبحان الله؛ أعمال كبيرة وعديدة ومتنوعة يجدها صاحبها بهذه الصِّفة! (هباءً منثورًا) أي لا شيء، لا يجدها شيئًا ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور:٣٩]، وهذا من أعظم العِبَر التي ينبغي للإنسان أن ينتبه لها، فيجاهد نفسه علىٰ أن تكون أعماله خالصة لله موافقة لهدي رسوله عليه الصلاة والسلام، حتىٰ لا تضيع وتذهب هباءً منثورًا يوم يقف بين يدي الله ﷻ.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، إنه تعالىٰ سميعٌ قريبٌ مجيب.